المحاضرة الثامنة:رواية التسعينات في المغرب العربي.

1-رواية أزمة أم أزمة رواية:

سارعت الرواية الجزائرية في فترة العشرية السوداء إلى التقاط الواقع،فجاءت النصوص حبلى بمظاهر الأزمة الدموية،وقد تميزت الكتابة في هذه المرحلة بمجموعة من المميزات التي خلقت أزمة في تصنيفها ووضعها في خانة المسميات المناسبة لها،فتحولت هذه الأزمة إلى أزمة في الكتابة،ونظرا لسرعة الروائيين إلى تجسيد هذا الواقع في أعمالهم أطلق النقاد وصف الأدب الاستعجالي على هذه الأعمال الروائية.

عمدت الرواية الى كشف الواقع المشبع بالسواد وهذا ما ألصق بها صفة الاستعجالية التي تحيل إلى مسارعة الكتابة والتقاط صور الدم والأشلاء والحرائق التي تأكل الوطن وما فيه،يقول الدكتور أحمد منور"ظهر هذا المصطلح الأدبي الجديد بالتعبير الأجنبي littérature d'urgence في الصحف الجزائرية الفرنسية اللسان في حدود منتصف التسعينات،لتوصف به النصوص الروائية وبعض البيانات السياسية التي صدرت عن كتاب معروفين،ثم اتسع نطاق هذا المصطلح ليشمل بعض التحقيقات الصحفية والحوارات المطولة مع بعض الوجوه التي تمثل أطراف الأزمة إلى الروايات الأدبية بمعنى الكلمة التي تعتمد على الخيال أساسا في معالجة الموضوع.

هذه النصوص التي كتبت زمن المحنة حاولت الاقتراب من الواقع فكانت شهادات كتبت تحت ضغط الأحداث بصفة استعجالية لتسجل الراهن الجزائري وتندد بقتل الإنسان،هذه الاستعجالية التسجيلية التي جعلت النصوص تفتقر نوعا ما إلى الاهتمام بالجانب الجمالي فاختلفت الآراء حولها،نجد الروائي مرزاق بقطاش يقول"وإذا بي اقرأ كتابات مستعجلة يظن أصحابها أنهم يعالجون صلب الموضوع،والمعروف في تاريخ الرواية العالمية أن الإنجازات

الروائية لا تتحقق إلا بعد هدوء البراكين الاجتماعية." لقد سارعت الرواية إلى التقاط في بناء الجانب التخييلي الموازي للواقع.

ويدعمه في هذا الرأي الروائي الحبيب السايح الذي اعتبر رواية الأزمة رواية غير ناضجة"لأنها لم تأخذ المسافة الضرورية لكي تتأمل المعطى السياسي."وهذا التزامن مع الحدث وتصويره كما يفعل الصحفي أو المصور الفوتوغرافي أثر في الرواية كفن يحتاج إلى التأني في الكتابة واتخاذ المسافة اللازمة بين الحدث والكتابة لكي تكون الرؤية الفنية أوضح،وبالتالي فرواية الأزمة عنده شهادة على الحدث لا أكثر ولا ترقى إلى مستوى النص الروائي المتميز،ويرى الروائي عز الدين جلاوجي أن "الرواية التي تناولت ظاهرة الإرهاب عندنا في الجزائر اتسمت بكثير من التسرع والارتجالية،كما اعتمدت لغة الإعلام والصحافة،كأنها روبورتاجات أو عمليات إحصائية لظاهرة الإرهاب."

في المقابل هناك من يرى أنه رغم الوقع الثقيل للأزمة إلا أن هناك من استجمع قواه الإبداعية وكتب أعمال راقية بعيدة عن التسجيلية،يقول سمير قسيمي"هذا المصطلح لا علاقة له بالرواية الجديدة فهو وصف للرواية التي ظهرت في التسعينات،وهو وصف لم يمس كل إصدارات تلك الفترة بل بعضها،ويلاحظ أن هذا النوع من الأدب الهجين كان من توقيع صحفيين من الأقسام الثقافية الذين لم يميزوا بين الكتابة الصحفية والكتابة الروائية. أما واسيني الأعرج فيرى"أنه من الصعب أن تكتب عن شيء أنت تعيشه،تحتاج إلى زمن لكن مع ذلك تقول لا،دعني أكتب،دعني أشهد على عصري،ولهذا أغلبية الكتابات هي شهادات،لكن الشهادة لا أرفضها لأن الشهادة في أوقات الأزمة مهمة ومفيدة.

إلى جانب مصطلح الأدب الاستعجالي نجد توصيفات أخرى:كأدب الشهادة،رواية المحنة،رواية الأزمة يقول جعفر يايوش"لقد أطلق البعض من زملائنا الأدباء الباحثين على الكتابة الأدبية في الفترة التاريخية الممتدة من 1990إلى2000اصطلاح كتابة المحنة أو

كتابة الاستعجال،فمصطلح المحنة ينصرف كلية إلى بيان تعالق الكتابة بالراهن الجزائري المأساوي إلى أبعد الحدود،راهن صادم للعقل والحس والمنطق والقيم محيل إلى عوالم لم تعرفها المخيلة الجماعية مطلقا."

إن صفة الاستعجالي هي الصفة الأدبية التي حققها هذا العمل الأدبي في تناوله أحداث العشرية السوداء،إنه المعيار الوحيد الذي يمكن تحكيمه في الإجابة فيما يخص التساؤل عن تصنيف رواية كتبت وأصحابها لم يستفيقوا تماما من واقع الصدمة.

2-خصوصية بنية الخطاب في رواية الأزمة:

إذا حاولنا أن نستجلي المميزات الفارقة لكتابة المحنة،وجدنا جل المقاربات تتجه رأسا إلى الموضوعة الغالبة أو المعلن تجاه ما يقع من حوادث وما يتعرض له المجتمع من أحداث على كل مكوناته المادية والبشرية ولعل ابرز الخطابات التي ترجمت فجائعية المرحلة ونقلت هواجس الروائي الجزائي:

1-خطاب الموت:

لعل أبرز خطاب طغى على سردية رواية الأزمة هو خطاب الموت وهذا ما جعل الرواية تكتسي ثوب المأساة والفجائعية وتحمل في ثناياها جنون الواقع المشوه بمشاهد الجثث والدماء ونجد الكثير من الروايات التي جسدت هذا الخطاب،مثل رواية متاهات ليل الفتنة لأحميدة عياشي يقول"صراخ وقرع وعويل،توسلات بكاء وعواء،الموت في كامل عرائه وسفوره يطرق الأبواب،نقتلكم كلكم،نذبحكم كلكم."وفي رواية بم تحلم الذئاب لياسمينة خضرا"يضرب الموت في كل مكان،كل الأيام،كل الليالي،دون هدنة ورحمة."ورواية فتاوي زمن الموت،بوح الرجل القادم من الظلام لإبراهيم سعدي،رواية دم الغزال لمرزاق بقطاش.

2-خطاب الخوف:

حاولت رواية الأزمة في إطار تفاعلها مع إفرازات العشرية السوداء تخييل تجربة الخوف،وفي رواية خراف المولى لياسمينة خضرا نجد خطاب الخوف يسيطر على مساحة السرد بسبب بطش الجماعات الإرهابية،أيضا تحضر هذه التيمة في رواية تاء الخجل لفضيلة الفاروق،الورم لمحمد يساري،خطوة في الجسد لحسين علام...

3-خطاب المساءلة:

لقد أدخلت هذه الأزمة الجزائر في متاهات الأسئلة المتعددة والأجوبة المتماهية في أسئلة لا تنتهي،لم يكن الروائي ببعيد عنها فقد شكلت مادته الخام التي انطبق منها ليعبر عن واقعه المأزوم وعن ذاته المفجوعة،وقد تساءلت الروائية ياسمينة صالح في روايتها وطن من زجاج بجرأة وشجاعة"من يقتل من؟"ويتساءل الروائي مرزاق بقطاش بجرأة وبحرقة في رواية دم الغزال"السؤال المحرق العاتي في دماغي يظل هو هو:من من الجماعة على حق."ويتساءل حسين علام في خطوة في الجسد"يبدو أن الوطن لن يصحو من سكرته مهما كانت الحجج،هل نحتاج إلى المزيد من القتلى حتى يستيقظ الضمير الجزائري،هل نحتاج إلى المزيد من الكوارث والموتى؟"

إن رواية الأزمة هي رواية الأسئلة،لكن الإجابة كانت دائما مؤجلة مختفية تحت ركام الأشلاء وزحمة الأحداث الفجائعية وما هذه الأسئلة إلا نتاج ضياع الروائي وتشظيه في متاهات الواقع السوداوي.

4-أزمة الأنتلجنسيا:

تعرضت معظم الروايات في هذه الفترة إلى وضعية المثقف الذي ضاع وسط هذه الأوضاع الشائكة وفقد دوره الحقيقي،ولعل هذا الدور لا يظهر في الأوضاع الهادئة والعادية بل يتجلى في خضم تمزق المجتمعات،والمثقف هو الشاهد على الأحداث الكبرى وبالتالي هو يستوعب في داخله تمزق مجتمعه،وقد تعددت نماذج المثقف في رواية الأزمة بين المثقف السلبي

العاجز والخائن الذي لم يستطع الحفاظ على مبادئه وأيديولجيته كما هي شخصية كريم في رواية الورم لمحمد ساري والمثقف اللامنتمي ويمثله دور السارد في رواية بخور السراب الذي أعلن حياده ولا انتماءه لأنه لم يعد يثق في أحد ولا يؤمن بكل التوجهات فاختار القطيعة مع المجتمع.

وهناك المثقف الثوري الإيجابي وتمثله شخصية الصحفي خالد رضوان في رواية بخور السراب وهو نموذج للمثقف الحق الذي لم يتراجع ولم يستسلم ولم يلجا للفرار رغم اضطهاد السلطة،أما المثقف الإشكالي فقد مثله أستاذ الفن الكلاسيكي في رواية فتاوي زمن الموت إذ تمرد على الواقع وأعلن رفضه للسلطة وللجماعات الإسلامية،و فلم تخل هذه الروايات من عرض حال المثقف وماساته وتعرضه لشتى أنواع العنف.

بعض المراجع المعتمدة:

-جابر عصفور:مواجهة الإرهاب قراءات في الأدب المعاصر،مكتبة الأسرة،القاهرة،2003.

-احمد منور:ثقافة الأمة،الوكالة الإفريقية للإنتاج السنمائي والثقافي،الجزائر،ط1،2009.